الفصل الخامس
الزرادشتيـــة

في التاريخ الفارسي.. كانت أكثر الإسهامات الجديرة بالذكر في مجال الفلسفة الدينية هي الزرادشتية. وفي هذه الفلسفة.. نجد أن صفات الحق والخير ليست وحدها أزلية، وإنما تشترك معها في الأزلية أيضا صفات الشر والضلال. وكل من هذه وتلك لها آلهتها التي لها أوامرها وإداراتها المستقلة. فهناك إله الخير.. أهورا مازدا (Ahura Mazda)، ويُعرف أيضا باسم إله النور، وهناك إله الشر.. أهرمان (Ahraman)، الذي يُعرف أيضا باسم إله الظلام؛ وكل منهما له دوره الخاص المحدد الذي يقوم به. وجميع الأنشطة التي تحدث في الكون إنما تحدث نتيجة للصدام المرير والتفاعل بين هذين الإلهين المقاتليْن، اللذيْن انخرطا في معركة بشعة للبقاء والتفوق.

إن قوى إله الخير تحاول على الدوام أن تسيطر على قوى إله الشر. ومثل الأرجوحة التي يعلو فيها طرف ويهبط فيها الطرف الآخر، فإن نتيجة هذا الصراع تنتقل من جانب إلى آخر، أحيانا لصالح الخير، وأحيانا لصالح الشر. وعلى ذلك فإن الفلسفة الزرادشتية تقدم شرحا بسيطا لوجود الشر والمعاناة ووجود الخير والسعادة في نفس الوقت، وذلك بإرجاع سبب وأصل كل منهما إلى مصدرين مختلفين. وكل الشرور في العالم – مثل الألم، والحزن، والكآبة، والجهل، والمعاناة – تنشأ حينما يكون لإله الشر اليد العليا.

ومن الواجب أن نذكر هنا أن زرادشت* عليه السلام (Zoroaster)، في حوالي

---

* كان زرادشت نبيا عظيما في بلاد فارس، ويعتقد الكثير من الزرادشتيين أنه كان يؤمن بثَنْوية الإله، أي أنه كان يؤمن بوجود إلهين اثنين، بينما يؤمن الكثيرون بأنه كان مُوَحِّدا.

القرن السادس قبل الميلاد، كان يُعلِّم بالفعل أن قوى الشر والخير تشترك في الوجود لتُمكِّن الإنسان من استخدام إرادته الحرة. وعلى ذلك فإن الإنسان سوف يحاسب في النهاية وفقا لنواياه وأعماله الطيبة والسيئة. وكان من تعليم زرادشت عليه السلام أيضا أن الكون قد خُلق بواسطة إله النور وأن قوى الخير سوف تنتصر في النهاية.

ومن الدراسة المتفحصة للزرادشتية.. يمكن للمرء أن يستنتج بسهولة أن ما صار فيما بعد يُسمى بإله الظلام، المستقل في وجوده عن إله النور، ليس في الحقيقة سوى ما يُقابل فكرة الشيطان الموجودة في الأديان التقليدية الأخرى، مثل اليهودية والمسيحية والإسلام. ويبدو أنه في بعض المراحل المتأخرة.. بدأ أتباع زرادشت عليه السلام يسيئون فهم فلسفته عن الخير والشر، واعتبروا أنهما مظهران لكائنين أعظمين مستقلين عن بعضهما البعض، ويتمتع كل منهما بالأزلية. هذا هو جوهر الفكرة الزرادشتية لمذهب الثَنْوية الإلهية. غير أنه حين إلقاء نظرة أخرى على الفلسفة الزرادشتية، فإنه يمكن للدارس المتفحص استنتاج أن الأمر لا يتعدى كونَه اختلافًا في المسميات، وذلك هو الذي خلق انطباعا خاطئا في التطابق بين الاثنين.

إن الدور المنوط بالشيطان في الأديان الأخرى هو نفس الدور الذي يقوم به "أهرمان" في الزرادشتية. ومن المرجح أن الزرادشتيين في العصور المتأخرة قد خلطوا بين تصور فكرة الشيطان وفكرة وجود إله مستقل للشر، وصاروا يعتقدون أنه السيد الأعظم لقوى الظلام. وهكذا يتبين أن سقطة في الفكر أدت بهم إلى سقطة أخرى، وبهذا صار أهرمان.. "إله الشر".. مشاركا في الأزلية مع الإله الخالق الواحد والأعظم.

وإنه لمن الصعب تعيين الزمن على وجه التحديد الذي بدأ فيه هذا الفهم

وهناك اختلاف حول الحروف التي تكون اسمه وكيفية نطقها، وقد اخترنا لفظ زرادشت، وهو الاسم الأكثر شهرة له، غير أن نيتشة قد أطلق عليه اسم زراسوترا، وحيثما ذُكر أي من الاسمين.. فليعلم القارئ أنهما يعودان إلى نفس الشخص. منه

الخاطئ يزحف إلى العقائد الزرادشتية، ولكن هناك أمر واحد يمكن التأكيد عليه، وهو أن الملك "كورش" (Cyrus) الذي عاش حوالي ٥٩٠-٥٢٩ق.م. والذي كان أحد تلامذة زرادشت المثاليين، كان أبعد ما يكون عن عقيدة ثنوية الإله.

إن المقام الأسمى الذي بلغه "كورش" في الزرادشتية.. كان يفوق حتى ذلك المقام الذي بلغه "آشوكا" في البوذية. لذلك فإن الحكم على الزرادشتية من خلال النظر في مرآة "كورش" سيكون أقرب إلى الصحة من الحكم على البوذية من خلال النظر في مرآة "آشوكا". ومن الممكن إثبات أن "كورش" كان يؤمن بعقيدة التوحيد، وذلك من خلال الإشادة التي نالها "كورش" في العهد القديم من الكتاب المقدس، والتي جاءت في سفر أشعياء الإصحاح ٤٥ من الفقرة الأولى إلى الفقرة الخامسة. إذ أنه من المستحيل تصور أن "رب إسرائيل" يمكن أن يُثني على "كورش" هذا الثناء الجليل، لو أنه كان من المؤمنين بعقيدة ثنوية الإله. يقول أشعياء النبي:

"هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكتُ بيمينه لأدوس أمامه أمما وأحقاء ملوك، أحلُّ لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تُغلق. أنا أسير قدامك والهضاب أمهد. أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك إله إسرائيل. لأجل عبدي يعقوب وإسرائيل مختاري دعوتك باسمك. لقّبتك وأنت لست تعرفني. أنا الرب وليس آخر. لا إله سواي ..."[١٦]

إن كورش العظيم يُذكر أيضا في القصص المروية عن القدماء، باعتبار أنه الملك المثالي المشهور بالتسامح والكرم، وأن الفُرس القدماء كانوا يلقبونه بلقب "والد الشعب". وقد أثنى عليه الكتاب المقدس، وذكره بالتشريف والتكريم باعتباره محرر اليهود من قيود الأسر في بابل.

وباختصار، فإن صورة الملك "كورش" قد عاشت خلال التاريخ باعتبار

أنه رجل ذو صفات فريدة. وقد أسس إمبراطورية عظيمة واسعة، من النادر أن يستطيع العظماء من الأبطال تأسيس مثيل لها. ومن بين جميع الأباطرة.. كان هو الوحيد الذي أفلت من لوم جميع المؤرخين الذين كتبوا عن عظماء التاريخ، إذ لم يستطع أحد أن يتهمه بذرّة من شائبة تشوب خُلقه كرجل، أو هنّة تعيب سلوكه كملك.

لقد كان يجمع في شخصه كل الصفات الحميدة التي يمكن أن تتوفر في الحاكم. ففي الحروب كان قائدا شجاعا باسلا غير هياب، وعند الانتصار كان شهما كريما، ولا بد أن إيمانه العميق بوحدانية الله الذي غزا كل قلبه كان نابعا من زرادشت عليه السلام نفسه.

إن الزرادشتية في كل سماتها هي الأقرب إلى اليهودية والإسلام. ولهذا فإن جميع عقائدها عن الخير والشر، والنور والظلام، لا بد وأن تكون مطابقة لمثيلاتها في اليهودية والإسلام. ومن المحتمل جدا أن يكون "أهرمان" ليس سوى اسم آخر للشيطان ولا أكثر.

والسؤال الوحيد الذي ينبغي العثور على إجابة له هو لماذا يجد الزرادشتيون أن لفكرة ثنوية الإله سحر خاص، حتى إنها بمجرد أن استحوذت على قلوبهم وترسخت فيها.. استمرت في رسوخها واتخذت لها مستقرا ومكانا ثابتا في العقائد الزرادشتية؟ ولا بد أن يكون هذا قد حدث خلال مرحلة من الأنشطة الفلسفية المركَّزة التي أقلق فيها المفكرين الزرادشتيين مسألة الشر والمعاناة على الخصوص. وهي مشكلة أزعجت الإنسان منذ زمن ساحق. وعلى مر العصور.. قدم الكثيرون من ذوي الرأي بين أصحاب مختلف الأديان آراءً متباينة لتبرير إيمانهم بإله طيب.

وفي أثينا أيضا، خلال نفس المرحلة، فإن نفس السؤال أثار اهتمام الكثير من المفكرين الأخلاقيين والدينيين والعلمانيين. ولم يكن من الصعب عليهم أن يجدوا حلا لهذا السؤال العويص، حيث إن معظم أهل أثينا كانوا يؤمنون بآلهة ميثولوجية متعددة، لم يكن مستبعدا عن بعضها أن

يتورع عن الكذب وارتكاب الحيَل لخداع الإنسان.. وحتى الآلهة الأخرى. وقد جاء ذكر تلك الخدع والحيل واعتبارها أمرا مقبولا من الآلهة في الإلياذة التي كتبها هومر. ومع ذلك، فقد وُلد بين أهل أثينا من كان فيلسوفا موحدا، وهو سقراط الذي ولد في عام ٤٧٠ قبل الميلاد. لقد كان نبيا بين الفلاسفة، وكان فيلسوفا بين الأنبياء، وكان يؤمن إيمانا لا يتزعزع بوحدانية الله تعالى. ولم يخطر بباله أدنى شك في أن الله تعالى هو الخير المطلق. وهذا هو ما تضمنه خطابه الأخير أمام مجلس الشيوخ في أثينا. ولم يكن إيمانه بالله وبأنه هو الخير المطلق نابعا من مجرد تفكيره الحاذق أو تجاربه الميتافيزيقية، وإنما كان يؤمن بذلك لأنه شخصيا كان يعرف الله هكذا منذ الأيام الأولى لطفولته. بل إنه قد تربى في حجر الله وتحت رعايته ومحبته. هذا هو سقراط الذي عالج أيضا السؤال الحالي معالجة منطقية عميقة، ولكنه كان منطقا استُنفذ في إثبات استحالة أن يكون أي شر قد نبع من الله تعالى. فحين تأتي المسألة إلى موضوع الشر والمعاناة في العالم، كان يعتبرهما أخطاء بشرية، من المستحيل منطقيا أن يكونا قد انبثقا من عند الله تعالى. فالله لا بد وأن يكون خيرا، وقد كان خيرا، ولا يمكن أن يكون إلا خيرا. وبالتالي. فإن الشر لا بد وأن يكون قد نتج من أهل الأرض، وليس لله دخل في الأعمال الدنسة التي يرتكبها الناس. وهكذا كان جوابه بسيطا، ولكنه ترك مجالا للآخرين للهجوم عليه فلسفيا حتى انتهى الأمر بمحاصرته في موقف دفاعي. ولم يقتنع المفكرون الزرادشتيون في إيران بهذه الإجابة، فأخذوا يسبرون أغوار المسألة، وراحوا يتساءلون عن أولئك الرجال الأشرار الذين يتسببون في وجود الشر ومن الذي خلقهم. فإذا كان الله هو خالقهم، فلا بد أن يكون هو المسؤول في النهاية. لذا.. ومن أجل قطع كل الروابط بين الخالق والشر كلية، فلا بد أن يكون المفكرون الزرادشتيون قد اخترعوا وجود خالق آخر معه. وكان أحدهما يوصف بأنه إله الخير والآخر بأنه إله الشر،

وكان كل منهما يباشر ألوهيته في مجاله الخاص به من نور أو ظلام.
وبالمناسبة، فإنه من الضروري أن نذكر هنا أنه ليس جميع الزرادشتيين يؤمنون بالضرورة بما يسمى عقيدة ثنوية الإله. فلا يزال هناك أولئك الذين يدافعون بقوة عن وحدانية الله في الزرادشتية، رغم أن أعدادهم اليوم تعتبر ضئيلة. ولا بد أن معظم هؤلاء الموحدين قد انجذبوا بشدة نحو الإسلام حين دخل إلى إيران. ومن الضروري أن نتذكر أنه باستثناء ثنوية الإله هذه وما أدت إليه من عبادة النار، فإن الزرادشتية تقترب كثيرا من الإسلام أكثر من قربها لأي دين آخر.
إن الله في الزرادشتية، الذي يسمى "أهورا مازدا"، يُذكر بنفس التعبيرات وله نفس الصفات التي تُستخدم في جميع الأديان العظمى. إلا أن المفكرين الزرادشتيين ظنوا أنهم قد حلوا معضلة الشر والمعاناة بإلقاء كل اللوم على الضحية أهرمان. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة. إن سُقراط أيضا الذي كان معاصرا لهم لا بد وأن يكون قد سمع بالمعضلة، أو لعله أمعن الفكر فيها بنفسه، غير أنه رفض هذه الفكرة تماما، وتمسك بوحدانية الله بكل إخلاص. أما التبرير الزرادشتي.. فبالرغم أنه يبدو كأنه أوجد حلا للمعضلة، إلا أنه خلق مشكلة أخرى أكبر وأعصى حلا. وسوف نعالج هذا الأمر فيما بعد، أما الآن فيجب أن نضع في الاعتبار أن الشر في ذاته ليس له وجود مستقل.. حتى يستدعي الأمر أن يكون له خالق يخلقه. وفي الواقع.. إن الشر هو مجرد اسم آخر لغياب الخير. وغياب الخير يبدو واضحا فقط حين يلعب النور والظل لعبة الغَمْضيّة (لعبة الأطفال التي يغمض فيها أحدهم عينيه فيختبئ الآخرون ثم يبحث عنهم). غير أن الظل ليس شيئا أساسيا. إن ما يهم هو وجود النور الذي يبدو أنه يخلق الظلال. ولكن الحق أن النور لم يخلق الظلال، فليست الظلال في الحقيقة إلا غياب النور، وتتولد الظلال حينما يحجز النورَ شيءٌ ما. ولذلك لم يكن هناك ما يدعو الزرادشتيين الذين جاءوا في العصور اللاحقة.. إلى أن يخلقوا شيطانا

من اختراعهم ويسموه "أهرمان". والخير مثل النور.. هو الذي في حاجة إلى أن يُخلق، وأما الشر في حد ذاته فلن يظهر إلا إذا غاب الخير. وعلى ذلك.. إذا كان "أهرمان" هو إله الظلام، فلا بد أن يكون هو نفسه نتاج غياب النور والفضيلة، فلا يكون هو خالقهما.

وفي ضوء ما ذكرناه حتى الآن يمكن أن نقرر باطمئنان أن زرادشت عليه السلام كان يؤمن فقط بإله الخير وليس بإله آخر، فقد كان يتلقى الوحي منه. والمعرفة بالنسبة لزرادشت والحقيقة الأزلية كانت تُستقى من الوحي الإلهي مباشرة ولا تُستمد من المنطق أو الإلهام وأحاديث النفس.

وعودة مرة أخرى إلى الحل الزرادشتي لمعضلة وجود المعاناة والشر، ولنحاول أن نبحث هذه الفلسفة مرة أخرى وبعمق. كيف جاءت المعاناة إلى الوجود؟ وما هو معنى المعاناة؟ إذا كان هناك إله قائم بذاته يدبر أمور الشر وآخر يخلق الخير، فماذا عساه يكون النتاج النهائي للنّزاع بينهما ومحاولة كل منهما للانتصار على الآخر؟ من الذي يكسب المعركة ولماذا؟ ورغم أن الزرادشتيين يأملون أن يكون الانتصار النهائي في جانب الخير، إلا أن فلسفتهم لا تُزودنا بأسباب هذا الانتصار، ولا لماذا من المحتم أن يظهر الخير على الشر. فإذا كان الإلهان مستقلّين في وجودهما، ولكن أحدهما أضعف من الآخر، فلا بد للإله الأقوى أن يكون قد أباد وأفنى الأضعف منذ وقت سحيق. وهكذا.. فلا بد بمرور الزمن أن يكون الخير قد ساد وظهر على جميع قوى الشر. وحيث إن هذا ليس هو الحال، فينبغي أن يكون كل من الإلهين متوازنين ومتساويين في قوتهما، ويكونان بذلك في صراع أزلي بعضها مع بعض مثل الأرجوحة التي يعلو جانب منها وينخفض آخر، وفي هذه الحالة.. لا أمل في انتصار الخير على الشر.

والأمر الهام الآخر الذي نرى ضرورة الرجوع إليه هو مسألة المعاناة. فكما سبق تبيانه.. رغم أن لفلسفة ثنوية الإله في الديانة الزرادشتية بعض التفوّق الواضح، إلا أنها فشلت في حل المعضلة. فإن ثنوية الإله هذه حين

تُبحث بعمق نجد أنها لا تصلح بتاتا في حل سر المعاناة في نظام الخلق الذي يكون الخالق فيه حميد الخصال وكريم السجايا. وسوف نعالج هذا الموضوع معالجة خاصة ومستقلة لما يستحقه من اهتمام.

المراجـــــع

1. *The Holy Bible.* (1982) The New King James Version. Thomas Nelson Publishers, Nashville. Isaiah 45:1-5